الجزء الخامس
الفصل الخامس

المصح على قدم وساق.. الأرض تدلك وزجاج النوافـذ تـصقل ومـلاءات الأسرة تبدل بغيرها نظيفة ناصعة البياض.. ورئيس المصح الكهـل البـدين يذرع البهو والردهات يصدر الأوامر.. فالليلة ستقيم الفرقة الإذاعيـة حفلـة للترفيه عن المرضى.. ويدخل الرئيس غرفة سلمى بينما هي مستغرقة فـي قراءة قصة قصيرة من مجموعة بنجوين لتترجمها للإذاعة.. وراح يخاطبها:

- أتدرين ماذا أعددنا لغذاء اليوم؟ ابتسمت سلمى:
- كلاّ، أرجو أن تكون أكلة أحبها..
- ما رأيك بالطباخ الجديد؟
- ممتاز.. انه حلبي على ما أظن..
- سيحضر لنا اليوم أكلة تحبينها جدا.. ضحكت سلمى:
- ماذا.. كبة حلبية؟
- هي كذلك.. ستحضرين الحفلة الليلة؟
- أنا!.. كلاّ.. ما أحبّ أن يدري أحد بوجودي هنا..
- وماذا في الأمر؟ يجب أن ترفّهي عن نفسك وتطربي.. ما الحياة بـدون طرب؟.. أتقام الحفلة على بعد خطوتين منك وتدعيها تفوتك!..
- ليس من إنسان لا يطرب للطرب.. وأستطيع من سـريري أن أسـمعهم وأستمتع كما لو كنت بينكم..
- لا يكفي أن تمتعي الأذن دون العين.. والاّ كـان المـذياع يغنـي عـن الحفلات التي تقام، وما كلّف أحد نفسه الإنفاق لحضورها..
- أرجوك.. اني أكون سعيدة جدا لو أعفيتني.. فلعل بين الحـضور مـن يعرفني.. وهذا لا يناسبني!..
- لن أعفيك.. ان لم تخرجي أوعزت اليهم أن يقتحموا غرفتك!

- اذا أحببت أن تغضبني فافعل ما بدا لك.. انني لـن أخـرج أبـدا مـن غرفتي..

- من يحب أن يغضبك؟.. كل ما في الأمر أني أودّ لو ترفّهي عن نفسك..

ما كان ليفوت سلمى السبب في إلحاحه.. انـه هـاو للطـرب والأصـوات الساحرة.. ولعلّه يظنّ أن علمهم بوجود سلمى في المصحّ مما يثير حميّـتهم لمضاعفة الحفلات فيستمتع ويمتع معه المرضى!..

وعند المساء أقفرت الغرف الاّ من سلمى ورا حت تردّد لنفسها وهي تنظـر من نافذتها الى رتل السيارات تحتشد في الطريق المشجر عنـد المـدخل.. وتصخي الى صدى قعقعة الكراسي والضحكات والموسيقى الخفيفة:

- انك يا أختاه بحاجة الى مائة أو مائة وخمسين غراما من الستربتومايسين لكل غرام سبع ليرات لإنقاذك.. هذا ما يقوله طبيبك.. فهل تحلّ لي هذه المشكلة الحفلة الغنائية؟.. كل تسلية ان هي الاّخدر مؤقت لمن تعتلج في قلبه الحسرات يعود بعدها الى حياته الغائمة الغبراء..

واعتمدت رأسها بين يديها.. "من سبعمائة الى ألف وخمسين ليـرة.. عـدا نفقات المصح ونفقتها الخاصة! أنى لك هذا ياسلمى، وأنت لو حطمت رأسك لما عوّض انتاجك في شهر بأكثر من مائة ليرة!.. أوّاه لو لم يتـدخّل هـذا الطارئ اللعين فألزمك الفراش لكان بوسعك أن تفعلي شـيئا وتتيحـي لهـا الفرصة..

- آنسة سلمى! ورفعت رأسها واذا بالباب كريم أحد الممرّضـين.. وهـو شاب غريب الأطوار، ضئيل الجسم أشلّ اليد اليمنى ولكنه ذكي مـاهر، مشوش الذكاء والمهارة يحسن عدّة أعمال ولا يتقن أحدها.. وهو شـاعر يعشق المريضات الجميلات في صمت ويقرض الشعر في رثـاء مـن يقتنصهن الموت في شبكته، وفي تهنئة من يسعفهن الحظ بالإفلات مـن قبضته.. وهو كيميائي، وكهربائي ومصلح أجهـزة الراديـو والأقفـال والأسرة.. وليس من عمل لا يستطيع أن يضرب فيه بسهم، وكل هذا بيد واحدة لا غير..

حدّثتها عن كل هذا السيدة نجاح زميلتها في الغرفة، وحدّثتها أنه كتب عنها بضعة أبيات، بينما هي جالسة الى طرف البركة في الحديقة تعبث بالماء بطرف إصبعها وقرأها على نجاح.. أما سلمى فكانت معاملتها له رسمية، ولا تحدّثه الاّ بأمر ضروري فيلبيها بأسرع من البرق..

- هناك آنستان تريدان رؤيتك فهل تسمحين؟

وتملّك سلمى غضب مفاجئ، وبقيت لحظة لا تحير جوابا.. وما لبثت أن تلاشى غضبها حين برزت الفتاتان من الباب مسرعتين نحوها تسلمان عليها وتقبلانها باهتمام وتأثر مخلصين.. انهما مطربتان ناشئتان تعرّفت عليهما في الإذاعة وتقومان أحيانا بالأدوار النسائية في تمثيلياتها.. وراحتا تسليانها بشتى الأحاديث وتغنيان لها، ولم يلبث أن تبعهما مطرب آخر يبحث عنهما، وفوجئ برؤية سلمى، وشاركهما هو الآخر بأغنية.. واحتشد عند الباب بعض الممرضات وأخذن يصفقن، وجاء المدير الإداري متهلّل الوجه ضاحك السن:

- أتقيمون الحفلة هنا والضيوف والمرضى ينتظرون هناك؟ وهتفت الفتاتان معا:

- سنبقى قرب سلمى الاّ اذا أحبّت أن تحضر الحفلة!..

- وغلب الخجل سلمى وشاءها على الإذعان للإلحاح.. وبقيت الآنستان بعد أن خرج الجميع تساعدانها على تغيير لباسها..

كانت حفلة رائعة متنوّعة الألوان.. هاهي أصوات المطربين والمطربات الساحرة الشادية الحنون تتبارى أمام المكروفون فتنساب الألحان متموجة راقصة في البهو الفسيح ويعلو الهتاف ويشتد التصفيق مع أنغام الموسيقى الصدوح.. وهاهو المونولوجست الشعبي الخفيف الروح يستلّ الضحكات رنانة من قلوب بائسة بما سكب في كلماته من مشاعر مؤاسية وصور مضحكة بمفارقاتها الطريفة وينتهي بعاصفة من التصفيق ليتبعه ذو الأنف العبقري وقد تقمّص الكمان والقيثارة ليعزف به مقطوعات موسيقية استثارت ضحكة متواصلة..

كانت سلمى تجلس قرب الآنستين في أحد صفوف الأضياف، وبجانبها مطرب نحيل شاحب يفرك يديه ويستدفئ بجمرات باهتة في "منقل" نحاسي قربه ويهتف بوجل وهو ينظر الى صف المرضى المقابل: "أيمكن أن يكونوا بمثل هذه السمنة ويمرضون؟" وخلفها مباشرة "أم كامل" وكبرى الآنستين تلتفت اليها أو اليه وترجوها أن تتحدّث بلهجتها الشامية الطريفة بضعة مقاطع من تمثيليات حكمت محسن لتضحك جمهور المرضى! فيفعل أو تفعل بكرم بعد تمنع مزيّف.. وقرب أم كامل مطرب يتحدّث عن فيلمه الأول الذي سيصدر قريبا كأول فيلم سوري.. وغير بعيد عن سلمى تتظاهر احدى المطربات بالإغماء وقد استبدت بها الغيرة من مطربة ناشئة نالت كثيرا من الإعجاب والتصفيق.. هذا ما حدّثتها به الآنستان وهما تسرّان اليها بخفايا الأمور..

ليلة رائعة حافلة في حياة المرضى!..

"اضحكي أيتها القلوب الكلمى، ولتغرّد الغبطة في أمسيتك، ولتهزّك عاصفة الفرح، وتناثر أوراق كآبتك الذاوية في انتظار أمل مزهر في مقبل الزمن.. اضحكي فليس في الحياة ألم صرف، ولا فرح صرف، وكلاهما يتناوبان الإنسان.. وليس لألم أن يدوم أمام غلبة النفس القوية..

في بقعة الألم الخالدة شربت واياك كأسا طافحة.. فمن يدري لماذا ساقتني الأقدار اليك وصهرت روحي بنار الألم اللاهبة؟ من يدري، ان للغيب الخفي لأمرا عجبا!"..

* * *